Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الشافعى ينظر إلى مستقبل العقيدة والتشريع الإسلامى، بعدما تخطى حدود أرض الرسالة، بعلاقاته الجديدة، وناسه الجدد رأى أن فكر مالك جاء فى وقت كان مجتمع الحجاز أقرب إلى حياة البداوة، فلم يكن فيه الفقه فى حاجة للفتوى إلا من خلال الحديث والسنة، ورأى أن فقه الإمام أبى حنيفة رغم تقدمه عن فكر الإمام مالك، رأى فيه الاجتهاد وتحكيم العقل، ولكن ينقصه بعض الحدود والضوابط.

من هنا رأى بثاقب فكره، وواسع ثقافته: وتعدد رحلاته، واحتكاكه بالناس، أن الأمر بالنسبة للإسلام يحتاج إلى فقه متجدد شامل، لا ينسف فقه من سبقه - مالك وأبى حنيفة - وإنما يحترم ويحتفظ بالأصول الأولى ممثلة فى الكتاب والسنة، ثم يضع فكرًا متقدمًا، لا يصلح لعصر دون سواه، وإنما يصلح لكل العصور.

هذا الفكر الجديد الذى حاوله الشافعى، كان مطلبًا ملحًّا فى ذلك الوقت الذى نضج فيه الشافعى من جهة، وأيضًا لظروف العصر من جهة أخرى. فقد كان عصرًا مزدهرًا. لأنه عصر المناظرات الفقهية، وعصر تبلور فرق الإسلام، التى كانت لها مجادلاتها، ووجهات نظرها.

عاش الشافعى ٥٤ عامًا فقط. كانت بمثابة قرون.

ومن هذه السنوات - سنوات عمره - ظل يرحل ويجادل ويتحاور ويناظر ويدرس ويقرأ ويكتب مدة ٤٥ عامًا. ثم فى أربع سنوات أو يزيد قضاها فى مصر، بلور كل ذلك فى مذهب يحمل اسمه، انتشر فى دنيا الإسلام، حتى فى تلك البلاد التى كانت تعتبر معاقل لمذهبى من سبقوه من المالكية والحنفية.

* * *

فى زاوية الخشابية فى جامع عمرو بن العاص، كان يجلس الشافعى وحوله العلماء: رجالاً ونساء على السواء، كنظام الجامعات الحديثة الآن. وكأن الشافعى كان يحس بأن عمره قصير فى مصر. ولابد من الجهد لإرساء قواعد مذهبه وتأصيله. وكأن تلاميذه كانوا يشعرون بأن الشمعة أوشكت أن تنطفئ زبالتها، فحاولوا الانتفاع بضوئها إلى آخر لحظة. ولذلك: وكما يقول تلميذه الربيع المرادى: «كان